لونجينوس LONGINUS

عن الأسلوب السامى (الرفيع)

PERI HYPSOUS = On the Sublime

محمد حمدى إبراهيم

المؤلف

لانعلم شيئًا تقريبًا عن مؤلف كتاب الأسلوب السامى ، ولاحتى مجرد اسمه . ولكن من طبيعة هذا الكتاب ومحتوياته والطريقة المتبعة فى معالجته للموضوع اعتقد كثير من الباحثين أن هذا الكتاب قد تم تأليفه خلال القرن الأول الميلادى ، ربما كتصويب لعمل مفقود عن نفس الموضوع ألفه ناقد يدعى Cecilius ، كان صديقًا للعالم اللغوى الإغريقى ديوينسوس الهاليكارناسى .

وربما كان هذا الارتباط بين كيكيليوس وبين ديوينسيوس الهاليكارناسى هو الذى أدى فى العصور المتأخرة إلى نسبة هذا الكتاب خطأً إلى ديوينسيوس . وهناك اتجاه آخر نشأ لدى بعض الباحثين كان من نتيجته أن نُسبَ هذا الكتاب إلى ناقد من القرن الثالث الميلادى يدعى كاسيوس لونجينوس : ذلك أن المخطوط الباريسى الذى يرجع تاريخ تدوينه إلى القرن العاشر الميلادى - وهو أقدم المخطوطات التى لدينا عن هذا الكتاب - ينسبه إلى ديونيسيوس أو إلى لونجينوس . ورغم خطأ هذه النسبة وعدم دقتها إلا أن الدارسين قد درجوا منذ ذلك التاريخ على نسبة هذا الكتاب إلى لونجينوس وبوجه خاص لأننا حتى الآن نجهل من هو مؤلفه الحقيقى .

أما فيما يختص باسم بوستوميوس تيرنتيانوس Postumius Terentianus الذى ذكر المخطوط الباريسى أن هذا الكتاب قد أهدى إليه ، والذى ورد بالمخطوط خطأً أنه Postumius Florentianus ، فصاحبه مجهول تمامًا بالنسبة لنا حتى الآن . ولقد أثبتت الدراسات النقدية المتلاحقة أن نص الكتاب وصل إلى العصور الحديثة غير كامل ، بل يحتوى على أكثر من ست ثغرات تقدر بحوالى ٢٠ صفحة أو ما يقرب من ١٠٠٠ سطر . وبالرغم من هذه الخسارة الأدبية المؤسفة فإن ما يبعث على العزاء أن

الجزء المتبقى من الكتاب يحمل معنى متكاملاً ومتناسقًا فى الوقت نفسه ، بحيث يمكن أن يمدنا بفكرة كافية عن عظمة هذا الكتاب وأهميته لتاريخ النقد الأدبى .

الكتاب

والكلمة الإغريقية التى اختارها المؤلف عنوانًا للكتاب وهى hypsos تعنى الشموخ أو العلو أو السمو ، ولكن استخدامها على يد المؤلف فى ثنايا الكتاب يدل على أنها تعنى الأسلوب المتميز الرفيع ، وعلى أنها تدل على سمو الفكر التابع عنه ذلك الأسلوب . ويعرف لونجينوس الأسلوب الرفيع على أنه امتياز فى التعبير يتمكن عن طريقه المؤلف من اكتساب الشهرة الخالدة . وليست هناك فى لغتنا العربية - فى حدود علمى - كلمة واحدة يمكن أن تحمل كل هذه المعانى دفعة واحدة ، ولقد شعر النقاد الأوروبيين قبلنا بعجز لغاتهم عن تقديم مصطلح يؤدى هذا المعنى بكفاءة . وفى الوقت الحاضر يمكننا استخدام عبارة الأسلوب السامى أو الأسلوب الرفيع أو عظمة الأسلوب .

وبالرغم من أن لونجينوس يلجأ أحيانًا إلى الاستطراد وإلى الخروج عن الموضوع الرئيسى الذى يعالجه ، إلا أنه لم يفقد زمام السيطرة على موضوعه بحال من الأحوال ؛ إذ كان تركيزه دومًا على الصفات والخصائص والوسائل التى يتمكن عن طريقها الكاتب من بلوغ مستوى الأسلوب السامى ، أو التى تؤثر على وصوله إلى ذلك الهدف . وبعد أن يقوم لونجينوس بتعريف اصطلاح السمو يطرح من جانبه سؤالاً وهو : هل هناك حقًا مثل هذا الأسلوب الرفيع فى الأدب ؟ وتعيد إجابة لانجينوس إلى أذهاننا ما سبق أن سمعناه من هوراتيوس ومن غيره من النقاد ، فهو يرى أن الأسلوب الرفيع أمر فطرى وهبة موروثة لابد من تعهدها بالتثقيف والعناية والصقل عن طريق عدة وسائل ، من بينها محاكاة الكُتّاب الذين اشتهر عنهم التمكن من الأسلوب الرفيع والعمل على الوصول إلى مستواهم المتميز . إن المهارة فى نظر لونجينوس ضرورية إذا ما أردنا للموهبة الفطرية أن تؤتى ثمارها وتصل إلى الغاية المرجوة منها .

ولونجينوس واقعى فهو لايتوقع من أى كاتب أن يظل دائمًا وأبدًا محافظًا على مستوى من السمو فى الأسلوب لايعتوره الفتور ولايتطرق إليه الوهن ، وهو يعتقد أن هوميروس شبيه الآلهة فى عظمته وأفلاطون النجم الساطع فى سماء الفكر الإغريقى لهما زلاتهما وهفواتهما . ومن رأيه أيضًا أن كثيرًا من الكُتّاب الآخرين لايستطيعون الاحتفاظ

بالمرتبة الشامخة التى بلغوها ، لأن الاحتفاظ بالقمة أمر عسير التحقيق . إن الكاتب الذى يومض أحيانًا بالعبقرية فيصل إلى الأسلوب الرفيع يُعد فى نظر لونجينوس أفضل من ذلك الذى يتقن كل جزء من عمله على حدة ولكنه ، مثل هيبريديس الخطيب الأثينى ، يفشل فى الوصول إلى الشموخ عن طريق عمله ككل .

ويدور صلب هذه المقالة النقدية حول مناقشة وتوضيح خمسة مصادر للأسلوب الرفيع : أولها وأهمها (فصول ٨-١٥) هو عظمة الفكرة ومقدرة الكاتب على خلق تصورات سامية ، ويتوفر هذا المصدر عندما يتحلى الكاتب بروح نبيلة أو شخصية سامية ؛ ويضرب لنا لونجينوس مثلاً توضيحيًا على ذلك من شعر هوميروس ومن سفر التكوين . وقد يتأتى ذلك من الاختيار الملائم للألفاظ وللموضوع ، ومن ترتيب العناصر المؤلفة للأسلوب ؛ وهنا يمتعنا لونجينوس بتحليل رائع لإحدى قصائد الشاعرة سابفو . وبعد أن يتحدث المؤلف عن الأخيلة يصل بنا إلى المصدر الثانى وهو العاطفة القوية الملهمة ، ولكنه لايحلل هذا المصدر أو يشرحه كما فعل مع المصدر الأول بل وعد بالعودة للحديث عنه فى كتاب مستقل . أما المصدر الثالث للأسلوب الرفيع (فصول ١٦-٢٩) فهو الاستخدام المؤثر والفعال للأساليب الريتوريقية ، ويوضح لنا لونجينوس أن أفضل استخدام للمحسنات البديعية هو استخدامها دون أن يشعر الكاتب بأنه يستعين بها ، أو كما نقول الآن أن تظهر فى الأسلوب عن طريق اللاوعى . والمصدر الرابع (فصول ٣٠-٣٨) هو استخدام التعبيرات السامية والمفردات الجيدة ، ويتضمن هذا الاستخدام الماهر للاستعارات والكناية والمجاز والتشبيه وما إلى ذلك من فنون البلاغة . والمصدر الخامس والأخير (فصل ٣٩-٤٠) هو التأليف الشامخ الجليل : بمعنى إصرار الكاتب على ترتيب كلماته وصياغة عباراته من أجل أن تفلح فى إعطاء الأثر الفعّال ، وبحيث يتحقق عن طريقها مفهوم الوحدة العضوية .

ويعتبر كتاب الأسلوب الرفيع إضافة هامة لها وزنها فى مجال تاريخ النقد الأدبى ، حيث إن مؤلفه لايكف ما بين الحين والآخر عن ضرب الأمثلة وعن الشرح والتوضيح وعن التحليل الذى يتم عن مقدرة نقدية وحس أدبى مرهف وعن تذوق فريد لأساليب التعبير الجمالية . ولقد أشار لونجينوس إلى بداية سفر التكوين Genesis ، أول أسفار العهد القديم وهو كتاب اليهود المقدس الذى نعرفه باسم « التوراة » ، وهى الفقرة التى يمكن ترجمتها على النحو التالى :

« فى البدء خلق الله السموات والأرض . وكانت الأرض قفراً وقاعًا صفصفًا ، وعلى وجه القمر ظلمة . وكان روح الله يسرى على الماء وقال الله للنور كن فكان ، ثم رأى الله أن النور جميل ففضل الله النور عن الظملة . ثم سمى الله النور نهارًا والظلمة دعاها ليلاً » .

وهذه الإشارة من الأهمية بمكان لأنها تدعونا إلى التأمل فى مدى انتشار التوراة فى عصر لونجينوس ، ولكنها لاتوضح لنا ما إذا كان لونجينوس قد استشهد بهذه الفقرة من الذاكرة أم أنه قرأها بنفسه عند اطلاعه على الترجمة السبعينية ، وهناك احتمال فى أنه اقتبسها عن كتاب كيكيليوس سالف الذكر أو عن أى كتاب آخر ؛ كما أن البعض يرى - وهى مجرد وجهة نظر متشككة - أن هذه فقرة مزيفة أقحمت على الرسالة فى عصر متأخر .

مثل هذه الاستشهادات من المصادر الأدبية المتعددة تضع لونجينوس فى منزلة الحكم الممتاز والناقد الخبير . كذلك فإن فى استشهاده بأعمال هوميروس وأفلاطون وديموسثينيس ، وفى تعليقاته المدهشة على قصيدة سابفو التى استشهد بها ، وفى عقده مقارنة بين كل من ديموسثينيس وشيشرون وبين كل من ديموسثينيس وهيبيريديس ما يجعلنا ندهش لسعة اطلاعه ولعمق آرائه النقدية . ومن أجل هذه الميزات استحق اسم لونجينوس أن يدرج فى قائمة أعظم نقاد الأدب فى العصر الكلاسيكى . إن لونجينوس ليس أول ناقد رومانسى فحسب بل هو أيضًا أول ناقد للأدب المقارن قبل أن يعرف الناس كيفية مقارنة أدب بأدب مدون بلغة أخرى . إنه كتاب يعرض وجهة نظر معلم يستعرض الأعمال الأدبية العظيمة أكثر من كونه تحليلاً صادراً عن فيلسوف منظر ، والأدب الذى يشغله هو ذلك الأدب القادر على منحه المتعة . وهو يتحدث فى كتابه كإنسان إلى صديق له يتمتع بذوق مماثل ، فينقل له تلك الأجزاء التى بدت له من أعظم الأعمال الأدبية براعة ثم يشرح له سر براعتها . ولونجينوس على خلاف أرسطو لايهتم بتاريخ الأدب ولايركز على أنماط منه مثل الملحمة والتراجيديا ولايقوم بدراسة نظرية الأدب ، بل يهتم بالعبارة أو بالفقرة أو بالقصيدة التى تجعل ذهنه يضطرم بشعلة متأججة : فليس الشكل بمعناه الواسع هو الذى يؤلف أهمية فائقة بالنسبة له ، بل وضع نصب عينه إيضاح القصائد القصيرة أو الأجزاء المستقلة من كل عمل ينال إعجابه .

محتويات الكتاب

فى البداية يقوم لونجينوس بتعريف الأسلوب الرفيع فيوضح أنه مهارة فى التعبير نابعة من المصدر الذى يستمد منه عظام الشعراء والأدباء سموهم ويحققون عن طريقه الشهرة الخالدة . ويبين أن أثر الفن الرفيع يكمن فى العظمة التى لايقاوم احتمالها والتى تبسط سلطانها على كل مستمع . ومن رأيه أن المهارة فى الابتكار والنظام الدقيق وترتيب الأفكار تؤلف فيما بينها مزيجًا يبدو كخلاصة فريدة بعيدة المنال ، وليست نتاج عامل واحد أو عاملين بل هى وليدة النسيج كله والتركيب برمته . والرفعة التى يتطلع إليها لونجينوس تتبلج مشرقة فى اللحظة المناسبة ، وتبعثر أمامها كل شئ كالصاعقة ، وتعرض علينا قدرة الكاتب بكل عظمتها وكمالها : إنها نار يتبلج منها النور وليست شعلة يتصاعد منها الدخان .

وبالرغم من أن لونجينوس يعتقد بوجوب وجود ضوابط على العبقرية حتى لايكتب الشاعر نوعًا من شقشقة اللسان ، إلا أن اهتمامه كان ينصب أساسًا على العبقرية التى تتخطى كل القواعد ؛ ولسوء الحظ يحتوى المخطوط على ثغرة بعد هذه النقطة . بعد هذا الجزء يعود لونجينوس للحديث عن الأخطاء التى يجب على الأديب المبدع تجنبها ، ويعطى أمثلة على السمو الزائف والعبارات الطنانة وشحنات الإحساس التى لاتقدم فى وقتها الملائم فتسبب الملل والفتور . ولايقنن لونجينوس هذه العناصر عن طريق القواعد بل يحتكم عند عرضها إلى ذوقه ، كما يبدى قلقه من ظاهرة جنون البحث عن الجديد أو الولع بالغريب ، وهو اتجاه انتشر بصورة ملحوظة فى عصره كما هو الحال فى كل فترة من فترات اضمحلال الأدب ؛ ولكن ناقدنا يرى أنه ليس هناك طريق معبد أو درب ممهد لتجنب الوقوع فى مزالق هذه الهوة . ويعتقد لونجينوس أننا نصل إلى الحكم الصائب فى مجال الأدب من خلال الخبرة الطويلة ، وأن الذين يتمتعون بهذه الخبرة هم وحدهم القادرون على التمييز بين ما هو حقيقى وبين ما هو زائف .

لقد قام لونجينوس بتعريف المهارة الحقيقية الكامنة خلف الإبداع ، ولكن تعريفه نقد عدة مرات ، تحت زعم مؤداه أن من المشكوك فيه وجود علاقة بين زيادة معرفتنا بمزيد من الثقافات ذات التقاليد المختلفة وبين قدرة العمل الأدبى على منح الامتاع فى كل العصور لأولئك الذين يعرفون هذه الثقافات المختلفة . وانطلاقًا من هذا التصور يقول هؤلاء النقاد إننا قد نقرّ بامتياز الموسيقى الصينية ، لا على أساس ما تبعثه فى نفوسنا من متعة

، بل على أساس ما نسمعه من الصينيين عن روعتها . ورغم هذه الاعتراضات فإن تعريف لونجينوس يتضمن كثيراً من الصدق ، على الأقل فى حدود خبراتنا التى تجعلنا نحس فى عالمنا المعاصر بأننا أكثر تذوقًا للآداب الأجنبية بل وربما أكثر تفضيلاً لها .

بعد ذلك يوضح لنا لونجينوس أن هناك خمسة ينابيع للبلاغة يرتبها على النحو التالى :

١- قبضة محكمة على الأفكار .

٢- مشاعر متأججة وملهمة .

٣- ترتيب مناسب للمفردات .

٤- لغة واضحة وسهلة .

٥- قدرة على التأثير الكبير المؤدى إلى العظمة والسمو .

ويبدو أن لونجينوس يختلف مع نظرية أرسطو عن التطهير ، فهو يخبرنا بأن هناك بعض المشاعر الوصفية الخالية من الرفعة مثل الشفقة والخوف والقلق . كذلك ففى إقراره بأن المهارة الحقة تسمو بنا ما يتعارض مع ما ساقه أرسطو فى تعريفه الشهير للتراجيديا .

وفى الجزء الثانى من الكتاب يتناول لونجينوس كل مصدر من المصادر الخمسة بالتفصيل والشرح ، ويصرح بأنه لابد من الاتصاف بالعظمة إذا أردنا أن تكون لنا أفكار عظيمة ، لأن مثل هذه الأفكار لاتكون فى متناول ذوى السلوك الوضيع أو ذوى الأطماع والنزعات الشريرة . وكمثال على السمو النابع من عظمة المصدر الذى نبعت منه الأفكار يستشهد لونجينوس بالعهد القديم فيقول : (إن المشرع اليهودى لايبدو لنا إنسانًا عاديًا حينما يكتب : « قال الله . . . ماذا قال ؟ ليكن هناك نور ، فكان هناك نور . وليكن هناك أرض ، فكانت هناك أرض ») . وفى هذا الجزء الممتع للغاية من الكتاب يقارن لونجينوس الأوديسية بالإلياذة ، ثم ينقل قصيدة رائعة للشاعرة سابفو فيكون له بذلك فضل الاحتفاظ بها للأجيال التالية ، حيث إنها لم ترد فى المخطوطات .

ومن الصعب أن نصف كل الجوانب المتعددة للمهارات التى جاء ذكرها فى كتاب لونجينوس ، ولكن أهم ما فيه هو أنه يجعلنا نستوثق من عظمة أى عمل أدبى عن طريق استجابتنا له بما نملك من قدرات عقلية وأحاسيس متنوعة . ولم يفلح لونجينوس رغم تفوقه فى تجنب أخطاء كانت تسود عصره : فلقد أنفق جهدًا كبيرًا فى دراسة أخطاء

التراكيب اللغوية ، ربما كان الأجدى بالنسبة لنا لو أنه أنفقه فى دراسة موضوعات أخرى أكثر إلحاحًا وأهمية . لكنه رغم ذلك قد زودنا بأمثلة كثيرة تشهد على حسن ذوقه وعلى حسه الأدبى المرهف . إنه يعتقد أن الأسلوب الرفيع أمر تسهل معرفته وهناك قوة تجعلنا ننزع إليه ، لأن بداخل كل منا نزعة تتوق إلى ما هو عظيم ونبيل .

إن أفكار لونجينوس بوجه عام لاتمت إلى هوراتيوس ولاتنتمى إلى الكلاسيكية الحديثة ، فهو يعتقد أن كل ما هو صحيح من الأفكار هو الذى يصمد أمام الانتقاد ، وأن العظمة الحقيقية هى التى تحوز الإعجاب فى نفس كل منا بدرجة تكاد تكون متساوية . ولأن لونجينوس عاش فى عصر اضمحل فيه الإبداع وغابت فيه الحرية السياسية والروح الديمقراطية الأصيلة ، فهو يختتم كتابه بتساؤل ينطوى على التعجب : هل توافق الأدب اليونانى مع الديمقراطية ؟ وهل الحرية وحدها قادرة على احتضان العبقرية وعلى شحنها بالآمال الكبار ؟ إن لونجينوس لم يجب على هذا التساؤل ورغم ذلك فنحن لانشك فى اقتناعه بقدرة الحرية على احتضان العبقرية وتغذيتها . فناقدنا لايلقى بالآراء جزافًا ولايتسرع فى إصدار الأحكام ، وتشككه يرجع إلى أنه لم يعش فى مثل هذا العصر ولم يحس بما كان يدور فيه من إرهاصات وتأثيرات ؛ وأيًا كان الأمر فالإجابة على مثل هذا التساؤل لاتمس جوهر الموضوع .